من الفيلوكاليا

٣

أقوال

القديس دوروثيوس

EARLY FATHER FROM THE
PHILOKALIA
3- ST. DOROTHEOS OF GAZA

تعريب واعداد

القمص اشعياء ميخائيل

مـــن الفيلوكاليـــا

٣
أقـــوال
القديس دوروثيـؤس

Early Fathers From The Philokalia
3 - St. Abba Dorotheos

القمـص إشـعياء ميخـائيـل
كنيســة المـلاك بالظـاهـر



صاحب القداسة
الأنبا شنودة الثالث بابا الاسكندرية
وبطريرك الكرازة المرقسية

تقـــديم (١)

القديس دوروثيؤس ولد حوالى عام ٥٠٦ م فى أنطاكية بسوريا من أسرة غنية جداً . وقد تثقف بالعلوم العالمية إلى أن وصل إلى أقصى مراحل التعليم ، حيث درس البلاغة ووصل بعد ذلك إلى أن صار أستاذاً لها ، علاوة على تثقفه بفلاسفة ما قبل المسيحية مثل أرسطو وأبو قريطس . وقد كان غنياً جداً وله سمعة وشهرة وسط الكثيرين . ولقد عاش فترة من الزمن حيث مسقط رأسه التى لا تبعد كثيراً عن دير آبا ساريد Abba Sarid وربما يكون ذلك فى مدينة إسكالون Ascalon . وحدث أن وقع زلزال كبير فى منطقة أنطاكية عام ٥٢٦ م ، وكانت سنى حياته عندئذ حوالى ٢٠ عاماً ، فأدى ذلك إلى إنتقال الأسرة كلها إلى غزة ، بعد أن فقدوا كل ثروتهم وممتلكاتهم كضحية للزلزال . وخلال إقامة دوروثيؤس فى غزة كان على صلة بالقـديس سارير والأبـوين برصنـوفيوس ويوحنـا . وتـأثـر جداً بأقـوالهـما وأحاديثهما ، مما جعله يترك كل شىء ليمارس حياة التقشف والنسك على أيدى هؤلاء الأبـاء فى دير تاباتا Thawatha حيث كان يقيم القديس ساريد Sarid . وتتلمذ دوروثيؤس على كتب القديسين اغريغوريوس وباسيليوس وأوغريس .

ودير تاباتا هو الدير الذى عاش فيه من قبل القديس هيلاريون تلميذ القديس الأنبا أنطونيوس ، حيث أسس رهبنه فى تلك المنطقة ، أما القديس دوروثيؤس فقـد أحـرز تقـدمـاً كبـيراً فى حياة النسـك بفضل إرشاد القديس برصنوفيوس وبصلوات الآباء ومعرفتهم له . وقد أصيب بعد ذلك بمرض مما أضعفه وعاقه عن ممارسة حياة التقشف والنسك .

وكـان مسئولاً عن خدمة المرضى أثناء وجوده فى الدير ..وكان شفوقاً عليهم جداً ، مما جعل الكثيرين يتأثرون بخدمته ومحبته وقدوته .

ولكن بعـد أن تنيح القـديسان برصنوفيوس ويوحنا وذهاب القديس ساريد ليتوحد ترك دوروثيؤس دير تاباتا وذهب ليحيا فى الوحدة . فألتف حوله الكثيرون فكان يرشدهم ويقودهم ويكتب لهم هذه الرسائل الروحية . ويحتمل أن كتاباته التى أرسلها لتلاميذه كانت خلال فترة توحده والتفاف تلاميذه حوله . وقد كتب إحدى وعشرين عظه (٢) ورسائل أخرى قليلة . وكل هذا تركه لنا القديس دوروثيؤس .

ولقد إنتشرت تعاليم دورثيؤس ليس فقط وسط الأديره بل وسط كل المسيحين . ولقد إنتقل القديس دوروثيؤس حوالى عام ٥٦٠ م .

ولقـد وردت هذه الأقـوال المـترجمـة فى هذا الكتـاب تحت اسم القديس آبا دورثيؤس فى كتاب الفيلوكاليا الجزء الثانى وعنوانها توجيهات فى التدريبات الروحية .

ويغلب على أقـوال القـديس دوروثيؤس العمق الـروحى والمسـاس بكيان الإنسان ، وهى بمثابة معونة تسند الإنسان فى توبته وقيامته وجهاده وإستعداده للملكوت والأبدية .

نطلب من الـرب أن يبارك كل نسخة لتكون سبب بركة للقارىء العزيز فى مسـيرته الروحية وشركته الدائمة مع الرب يسوع المسيح ببركة صلوات العذراء القديسة مريم وكل الآباء القديسين وصلوات وإرشاد وتشجيع قداسة البابا شنودة الثالث بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية .

٣ مايو ١٩٨٨

الثلاثاء الرابع من الخماسين المقدسة .

القمص اشعياء ميخائيل

---

(١) عن كتاب : Dorotheos of Gaza - Discourses and Sayings - Cistercian Publication
تعريب القمص إشعياء ميخائيل صدر عام ١٩٨٥

(٢) ترجمت هذه العظات فى الكتاب السابق الإشارة إليه .

تنفيذ الوصايا يطهر الخطايا والشهوات (٣) :

١ إن الله فى عطفه ومحبته قد أعطانا الوصايا التى تطهرنا . ولو رغبنا فإننا نستطيع خلال تنفيذ هذه الوصايا أن نتطهر من الخطايا ومن الشهوات أيضاً . لأن الشهوات هى أمر يختلف عن الخطايا ، والشهوات هى الغضب والمجد الباطل ومحبة الملذات وشهوة الزنا وما شابه ذلك ، أما الخطايا فهى الأفعال الحقيقية للشهوات ، حين يمارس الإنسان الشهوات عملياً ويرتكب بجسده الأفعال التى حثته عليها الشهوات . وقد توجد شهوات لا يمارسها الإنسان فعلياً .

وصايا العهدين القديم والجديد :

٢ إن ناموس العهد القديم كان له غرض فى تعليمنا وهو ألا نصنع ما لا نريد أن نفعله من الخطايا والشرور ، ولذلك أنهى عن إرتكاب الأفعال الشريرة فقط ، أما الآن فى ظل ناموس العهد الجديد فإننا مطالبون بطرد الشهوات نفسها التى تحثنا أن نفعل الشرور ، مثل الكراهية ومحبة الملذات ومحبة الشهرة وبقية الشهوات الأخرى .

الكبرياء والإتضاع :



إنصت إلى ما يقوله الرب لنا « **تعلموا منى لأنى وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم** » . مت ١١ : ٢٩

إنه يكشف هنا أصل وسبب كل العلل ، وكيفية البرء منها ، وسبب كل الصلاح . إن تمجيد الذات هو الذى أحدرنا إلى أسفل ، ولا يمكن أن نحصل على الغفران إلا بالسلوك بما هو عكس الكبرياء ألا وهو الإتضاع . وإذا ما نحن سألنا عن سبب المتاعب التى جلبت علينا ؟ أليس بسبب الكبرياء ؟ . إن الإنسان قد خلق لكى يتمتع بكل أنواع المسرات التى كانت فى جنة عدن . ولكنّ شيئاً واحداً كان ممنوعاً على الإنسان أن يفعله ولكنه قد إرتكبه ، أليس هو

---

(٣) العناوين من وضع المترجم .

الكبرياء ؟! ها أنت ترى عدم الطاعة التى هى بنت الكبرياء . ولذلك فإن الله قد قال بأن الإنســان لم يستــطع أن يبقى فى بهجـة الفـرح قط (بسبب عدم الطاعة) . ولكن إذا لم يختبر الإنسان الألم (عقب الخطية) فإنه سوف يستمر فى الخطية ويهلك تماماً ، وإذا لم يتعلم ما هو الحزن والتعب فلن ينال السلام والفرح . ولذلك فإن الله قد طرده من جنة عدن . وعندئذ أصبح الإنسان محصوراً فى محبة ذاتــه وإرادتــه الخاصة . وعندئذ دعاه الله أن يترك ذاته ويتبع وصايا الله . وإن ما عانـاه الإنسان من العصيان هو ما قاده أن يتعلم بركة الطاعة كما يقول أرميا النبى « **يوبخك شرك وعصيانك يؤدبك** » أر ٢ : ١٩ . ولكن ها هى رحمة الله الآن تنـادى « **تعـالـوا إلىّ يا جميع المتعبـين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم** » مت ١١ : ٢٨ . وكأن الله يقول لنا : كفاكم تعباً ومعاناه من ممارسة الشر الناتج عن التمـرد وعـدم الـطاعـة ، هيا تعالوا الآن وتغيروا ، إرجعوا أنفسكم إلى الحياة بالإتضاع عوضاً عن الكبرياء الذى قاد أنفسكم إلى الموت « **تعلموا منى لأنى وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم** » مت ١١ : ٢٩ .

أمثلة من القديسين :

يوجـد البعض الذين أحبوا الله فاستطاعوا بعد نوالهم المعمودية المقدسة أن يقطعوا أفعال الشهوات ، وتمكنوا بعد ذلك من إخماد الشهـوات ذاتهـا ، وصـاروا بلا أى شهـوة . هؤلاء مثـل القـديسين أنطونيوس وباخوميوس ، والآباء القديسين الآخرين . لقد إقتنوا القصد الحسن لكى يطهروا أنفسهم من كل « **دنس الجسد والروح** » ٢ كو ٧ : ١ .

ولكن الآن نوال ذلك (إخماد الشهوات) هو أمر صعب التحقيق أثناء حياتنا وسط العالم . ولذلك فإن الآباء القديسين قد إختاروا لأنفسهم أسلوباً معيناً من الحياة ونوعاً خاصاً من التدبير ألا وهو حياة الوحدة والإنعزال عن العالم . ولذلك هربوا من العالم وعاشوا فى البرية ومارسوا الصوم ، والسهر ، والنوم على الأرض ، وإحتـمال كل أنـواع التقشفـات الأخـرى ، وقد تخلوا نهائياً عن أقاربهم وذويهم وأموالهم ومقتنياتهم .

٥ إن الآبـاء القـديسين لم يحفـظوا فقط الـوصايا ، ولكنهم قدموا تقدمات للرب . إن الوصايا قد أُعطيت لكل المسيحين ، ومن واجب كل مسيحى أن يطيع تلك الوصايا ، لأنها تشبه الرسوم المطلوب سدادها للملك من الجميع . ولكن كما يوجد فى العالم أناس مميزون لا يسددون للملك الرسوم فقط ولكنهم يقدمون له هدايا إذ أن لهم مكانة خاصة . هكذا أيضاً الآباء القديسون لم يقدموا الرسوم فقط بأطاعة الوصايا ولكنهم قدموا تقدمات مثل البتولية والفقر التى ليست وصايا الهيه (مفروضة) ولكنها ممارسات بإرادتهم الخاصة ، لأنه قد قيل « من أستطاع أن يقبل فليقبل » مت ١٩ : ١٢ . وقيل أيضاً « إن أردت أن تكـون كامـلاً فاذهب وبـع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء » مت ١٩ : ٢١ .

صلب العالم :

٦ إنهم قد صلبوا العالم لأنفسهم ، متممين قول الرسول بولس « قد صلب العـالم لى وأنـا للعـالم » غـل ٦ : ١٤ . لأنـه حين يترك الإنسـان العالم ويصير راهباً فإنه يترك والديه وممتلكاته وكل الاهتمامات والهموم العـالمية وعنـدئذ يصلب العالم لنفسه . ولكن بعد أن يتحرر ذلك الإنسان من الأشياء الخارجية فإنه يجاهد أيضاً ضد الرغبات والشهوات الخاصة حتى يقمعها وعندئذ يصلب نفسه للعالم ، وعندئذ يستطيع أن يقول بشجاعة مع الرسول بولس « قد صلب العالم لى وأنا للعالم » غل ٦ : ١٤

٧ إن أبـاءنا قد صلبوا العالم لأنفسهم ، وقد صلبوا أيضاً أنفسهم للعالم عن طريق جهادهم . ولكن عن طريق ترك العالم والذهاب للأديرة فنحن نصلب العالم لأنفسنا ، ولكننا لا نريد أن نصلب أنفسنا للعالم ، ما دمنـا لم نزل نحب الملذات العـالمية ونرتبط بها ، ونتحرك نحو مجد الأشياء ، وما زلنا نختزن لأنفسنا الطعام والملابس وكل الأشياء الباطلة ، ولكن يجب ألا نسلك هكذا ، لأنه ما دمنا قد تركنا العالم والأشياء التى فيه [٤]، فإنه يجب أن ننزع من ذواتنا كل إرتباط بهذه الأشياء .

تدريب قطع المشيئة :

٨ نحن قد تركنا العالم [٤] ولذلك دعنا نترك أيضاً الارتباط به . لأن الارتباط يعيدنا ثانية للعالم ويربطنا به ، حتى لو كان ذلك بخصوص الأشياء العادية أو العديمة القيمة . ولو أردنا أن نتغير تماماً ونتحرر من الارتباط ، دعنا نقلع من أنفسنا تماماً رغباتنا الخاصة بالنسبة للأشياء الهامة .. لأنه لا شيء يفيد الإنسان أكثر من أن يتخلى عن إرادته الخاصة . بالحق إن الإنسان يحصل على فائدة عظيمة من وراء ذلك (التخلى عن الأرادة الخاصة) أكثر من أى فضيلة أخرى . فى الحقيقة إن (تدريب) قطع المشيئة والرغبة الخاصة نستطيع أن نمارسه كل حين . فإذا إفترضنا إنساناً يسير فى الطريق وتقول له أفكاره : أنظر إلى هذه وتفرس فى تلك ، ولكنه يقطع مشيئته ولا يخضع لها . وحين يتقابل مع آخرين ، تقول له أفكاره : هيا تحدث ببعض الكلمات القليلة معهم ، ولكنه يقطع مشيئته ولا ينطق بأى كلمة معهم . وحينما يأتى إلى المطبخ تقول له أفكاره : هيا إقترب لتعرف ما هو الطعام الذى تم إعداده ، ولكنه يقطع مشيئته ولا يدخل المطبخ . وهكذا فى كل أمر فإنه يقطع مشيئته الخاصة . وهكذا يقتنى تدريب قطع المشيئة مبتدئاً بالأمور الصغيرة حتى ينتهى بسهولة وهدوء بقطع المشيئة فى الأمور الأخرى الكبيرة ، حتى يصل فى النهاية ألا تكون له إرادة البتة ، ولا ينزعج قط لأى أمر يحدث . وهكذا عن طريق قطع المشيئة يصل الإنسان إلى عدم الارتباط . وعن طريق عدم الارتباط وبمعونة الرب يصل الإنسان إلى إنعدام الشهوات .

الإتضـــاع :

٩ قال أحد الآباء [فوق الكل نحن نحتاج إلى الاتضاع] فلماذا قال هذا ؟ ولماذا لم يقل أننا نحتاج فوق الكل إلى ضبط النفس ، لأن الرسول يقول : « وكل من يجاهد يضبط نفسه فى كل شىء » ١ كو ٩ : ٢٥ .

ولماذا لم يقل فوق الكل نحن نحتاج إلى خوف الله ، لأن الكتاب المقدس يقول : « رأس الحكمة مخافة الرب » أم ١٠ : ٧ . ولماذا لم يقل فوق الكل نحن نحتاج إلى الرحمة أو الإيمان لأنه قيل « بالرحمة والحق يستر الأثم » أم ١٦ : ٦

---

(٤) خاص بالرهبان .

وكذلك « **بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه** » عب ١١ : ٦ . ولماذا قد ترك هذا الأب كل الفضائل جانباً رغم شدة الاحتياج إليها وركز فقط على الاتضاع . إنه قد أرانا أنه ليس خوف الله ولا الرحمة ولا الإيمان ولا ضبط النفس ولا أى فضيلة أخرى يمكن أن نقتنيها بدون الاتضاع . وفوق هذا فإن الاتضاع يحطم جميع سهام العدو . إن كل القديسين قد تبعوا طريق الاتضاع ، وسلكوه وجاهدوا فيه . « **أنظر إلى ذلى وتعبى واغفر جميع خطاياى** » مز ٢٥ : ١٨ وأيضاً « **تذللت فخلصنى** » مز ١١٦ : ٦ .

الاتضاع والغضب :

١٠ وقد قال نفس الأب أيضاً : [**إن الإنسان المتضع لا يغضب أحداً ولا يغضب من أحد**] .

إن الاتضاع يجذب نعمة الله إلى النفس . وحينما تقترب نعمة الله إلى النفس تحررها من هاتين الشهوتين المحزنتين . لأنه أى حزن أكثر من أن تغضب من أحد أو تغضب أحداً ؟ ولكن هل الاتضاع يخلص فقط من هاتين الشهوتين ؟ إنه يخلص الإنسان من كل شهوة وكل تجربة .

قوة الاتضاع :

١١ حينما رأى القديس أنطونيوس كل شباك الشيطان مطروحة ، ضرخ إلى الله قائلاً : [**من ذا الذى يستطيع أن يتخلص من تلك الشباك ؟**] أجابه الله : [**إن المتضعين يفلتون**] . ولكن ما هو أعجب هو ما أضافه الله : [**ولا حتى هذه (الشباك) تلمسهم**] . فما هى يا ترى إذن قوة تلك الفضيلة ؟ فى الحقيقة لا يوجد شيء أقوى من الاتضاع . لأنه لا يوجد أى شيء شرير يستطيع أن يهزم الاتضاع . فلو حدث أن ضايق أحد إنساناً متضع ، فإنه للحال يلوم نفسه قائلاً إنه يستحق ذلك ، ولن يلوم أو يؤنب ذاك الذى ضايقه . ولذلك فإنه يتحمل كل شيء ويبقى بلا إضطراب أو حزن . وبكل هدوء لا يغضب من أحد ولا يغضب أحداً .

أنواع الاتضاع :

١٢ يوجد نوعان من الاتضاع كما يوجد نوعان من الكبرياء : النوع الأول من الكبرياء هو حين يذم أحد إنساناً ويدينه ويشتمه ولا يعمل له حساباً بل يقيم نفسه رئيساً عليه . وإذا لم يرجع الإنسان إلى صوابه ويعدل طريقه فإنه سوف يصل شيئاً فشيئاً إلى النوع الثانى من الكبرياء حيث يتعالى الإنسان على الله نفسه ، ويدعى لنفسه الكمال ، متوهماً أنه قد أكمل كل الفضائل بذكائه وقدراته ومعرفته وليس بمعونة الرب . ومن هذا تستطيع أن تعرف أنواع الاتضاع : أولهما حين يعتبر الإنسان نفسه أنه مجرد خادم للناس وأنه أقل منهم جميعاً وهم أعلى منه . والنوع الثانى من الاتضاع حين ينسب الإنسان المتضع كل كمال لله . وهذا هو كمال إتضاع القديسين .

إختبار الاتضاع :

١٣ لا يستطيع أى أحد أن يصف بالكلام ما هو الاتضاع ، وكيف يولد فى النفس ، ما لم يتعلم ذلك من الاختبار العملى . ولكن مجرد الكلام فقط لا يكفى أن يعرف الإنسان الاتضاع .

وقد حدث فى أحد الأيام بينما كان القديس زوسيما يتحدث عن الاتضاع أن تقدم إليه أحد الفلاسفة وسأله : هل تحسّ أنك تقتنى الفضائل ؟ ألم تكمل طاعة الوصايا ؟ فكيف تحسب نفسك أنك خاطىء ؟ ولما لم يستطع الأب زوسيما أن يجاوبه ، قال له فى بساطة : أنا لا أستطيع أن أعرف كيف أجاوبك ، ولكننى أعتبر نفسى أننى خاطىء . ولما إستمر ذلك الفيلسوف فى مضايقة الأب زوسيما إذ سأله : كيف هذا ؟ إستمر الأب يكرر نفس الأجابة : أنا لا أعرف كيف ؟ ولكننى أعتبر نفسى هكذا أننى خاطىء ، ولا تحاول أن تربكنى . كذلك حين أشرف القديس أغاثون على الموت ، سأله الأخوة : هل أنت خائف يا أبانا (من الموت) . فأجابهم : إننى على قدر إستطاعتى حفظت الوصايا ، ولكننى إنسان ، ولا أعرف هل كل ما فعلته قد أرضى الله أم لا ؟ لأن حكم الله يختلف عن حكم الإنسان .

الطريق إلى الاتضاع :

١٤ قال أحد الآباء المرشدين عن الطريق الذى يقود الإنسان إلى الاتضاع : [**إن الطريق إلى الاتضاع هو العمل اليدوى الذى يعمل بحكمة ، وأن يعتبر الإنسان نفسه أقل من الكل ، والصلاة لله بلا إنقطاع**] .

إن العمل الجسدانى يقود النفس للاتضاع ، لأن النفس تتألم مع الجسد ، وتشاركه فى كل ما يحدث له . وكما أن العمل الجسدى يقود الجسد للاتضاع ، فهكذا النفس تتضع أيضاً مع الجسد . وإعتبار الإنسان لنفسه أنه أقل من الجميع هو العلامة المميزة للاتضاع . ولو أن الإنسان درب نفسه على ذلك فإنه سوف يزرع الاتضاع فى نفسه ، وسوف يقلع ما سبق أن تحدثنا عنه بخصوص النوع الأول من الكبرياء (تعالى الإنسان على الآخرين) . لأنه كيف يستطيع الإنسان أن يتعالى على الآخرين أو يذمهم أو يلومهم إذا إعتبر نفسه أقل من الجميع ؟ وبنفس الأسلوب أيضاً فإن ممارسة الصلاة الدائمة هى التى تمنحنا النصرة على النوع الثانى من الكبرياء (أن ينسب الإنسان الكمال والفضيلة لذاته دون معونة الله) . لأن الإنسان الذى يميل إلى الاتضاع إذا ما أدرك أنه لن يستطيع أن ينال أى فضيلة بدون معونة الله ، فإنه لن يكف عن الصلاة والطلب لكى يمنحه الله النعمة .

وهذا هو الإنسان الذى يصلى بلا توقف ، إذا ما نال شيئاً لن يفتخر به لأنه لن ينسب ذلك إلى قدراته الخاصة ولكنه سوف ينسب كل ما ناله لله . وهو دائماً يقدم الشكر لله ، ويدعوه باستمرار بإحساس الخوف من فقدان المعونة الآلهية . ولذلك فإنه يصلى بإتضاع ، وعن طريق الصلاة فإنه ينال الاتضاع . وكلما يتقدم فى الفضيلة فإنه يتقدم فى الاتضاع ، وكلما يتقدم فى الاتضاع فإنه ينال نعمه وعندئذ يتقدم أكثر فى الاتضاع .

الضمـــير :

١٥ حينما خلق الله الإنسان وضع فيه فكراً آلهياً ، مثل الشعلة التى تمنح الإنسان النور والدفء . هذا هو الفكر الذى ينير العقل ويكشف له ما هو حسن وما هو ردئ . وهذا هو ما يسمى الضمير الذى هو الناموس الطبيعى . وخلال إتباع هذا الناموس فإن الآباء والقديسين قد أرضوا الله حتى قبل أن يكتب هذا الناموس .. ولكن بالسقوط فى الخطية قد داس البشر على الضمير وتركوه جانباً ، ولذلك ظهرت الحاجة إلى الناموس المكتوب ، وذلك ما فعله الأنبياء القديسون الذين سبقوا مجئ الرب يسوع المسيح حتى يقيموا الضمير مرة ثانية ، ويوقدوا تلك الشعلة عن طريق حفظ الوصايا المقدسة .

١٦ والآن قد أصبح فى مقدرتنا إما أن ندفن تلك الشعلة ثانية ، أو نجعلها تشرق فينا وتضئ لنا إذا ما نحن سلكنا فى الطاعة . وقد يحدث أن يحثنا ضميرنا أن نفعل شيئاً ولكننا نهمل فى ذلك ونرفض ثم يحثنا على ذلك ثانية ولكننا نستمر أن ندوسه ولا نعمل به ، ونكون بذلك قد دفنا هذا الضمير ، فلا يعود يتحدث معنا ثانية بوضوح من أجل الأثقال التى ألقيناها فوقه ، وعندئذ يكون الضمير مثل المصباح الذى يضئ من خلف الحواجز الساترة ، فإنه يجعلنا نرى الأشياء قاتمة ومظلمة . مثل الإنسان الذى لا يستطيع أن يرى وجهه فى الماء المملوء بالطين ، فهكذا نحن بعد السقوط فى الخطية يصعب علينا أن ندرك صوت الضمير ، وهكذا يبدو لنا كما لو كان لا يوجد فينا ضمير قط .

١٧ يطلق على الضمير الخصم لأنه دائماً يقاوم إرادتنا الشريرة . وهو دائماً يذكرنا بما يجب أن نفعله وما يجب ألا نفعله . وهو يديننا لو فعلنا شيئاً كان يجب ألا نفعله . ولذلك فإن الرب قد أطلق عليه الخصم حين طلب منا « كن مراضياً لخصمك سريعاً ما دمت معه فى الطريق » مت ٥ : ٢٥ . فهو خصم لنا ما دمنا فى هذا العالم كما يقول القديس باسيليوس الكبير .

١٨ لذلك دعنا نحرس ضميرنا ما دمنا فى هذا العالم ، فلا يجب أن نترك ضميرنا يتهمنا فى أى شىء ، أو نهمله فى أى أمر ولو كان صغيراً . ويجب أن ندرك أن أهمال الضمير فى أى أمر تافه أو صغير سوف يقودنا إلى الأهمال فى الأمور الأخرى الكبيرة . فلو أن إنساناً قال ماذا يحدث لو أننى أكلت ذلك الفتات من الأكل (قبل موعد الطعام) ؟ أو ماذا يحدث لو أننى نظرت إلى هذا أو ذاك ؟ أو القول ماذا يحدث لو فعلت ذلك أو تلك ؟ فإن ذلك الإنسان سوف يسقط فى عادات رديئة ولسوف يهمل فى أمور كبيرة وضرورية ، وسوف يدوس ضميره ، وعندئذ يصير فى خطورة السقوط وقسوة الشر وغلاظة الضمير .

١٩ يجب أن نحرس ضميرنا نحو الله ونحو الناس ونحو الأشياء . بالنسبة لحراسة الضمير نحو الله فإن الضمير يجب ألا يهمل وصايا الله حتى فى الأمور الصغيرة التى لا يراها البشر ولا يطلبها منا الناس ، بل نحفظ ضميرنا فى الخفاء نحو الله . وحراسة ضميرنا نحو الآخرين يتطلب منا ألا نفعل أى شىء يسىء أو يؤذى الآخرين سواء بالكلام أو الأفعال أو النظر أو الانفعال . وحراسة الضمير نحو الأشياء يعنى ألا نسىء إستعمال الأشياء ولا ندعها تفسد أو تتلف بسبب إهمالنا . وهكذا فى كل الأمور السابقة يجب أن نحفظ الضمير طاهراً وبلا لوم حتى لا نسقط فيها حذرنا منه الرب : « **الحق أقول لك لا تخرج من هناك حتى توفى الفلس الأخير** » مت ٥ : ٢٦ .

خـــوف الله :


يقول القديس يوحنا الرسول « **لا خوف فى المحبة بل المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج** » ١ يو ٤ : ١٨ .

ولكن كيف يتفق هذا مع قول المرنم داود فى المزمور « **خافوا** [٥] **الرب ياجميع قديسيه** » مز ٣٤ : ٩ .

إن هذا يشير إلى وجود نوعين من الخوف . الخوف الأول هو خوف المبتدئين ، والخوف الثانى هو خوف الكاملين . الأول خاص بالمبتدئين ، بينما الثانى خاص بالقديسين الكاملين الذين وصلوا إلى كمال الحب . إن الذى يطيع إرادة الله بسبب

---

(٥) فى الترجمة « إتقوا الرب . . . . » .

الخوف من العقاب فهو ما زال من المبتدئين ، ولكن الذى يكمل مشيئة الله بدافع حب الله لكى يرضيه فهو يصل خلال هذا الحب إلى الخوف الكامل الذى هو الخوف من السقوط حتى لا يحرم من إختيار الوجود والحياة مع الله . وهذا هو الخوف الكامل النابع من الحب الذى يطرد خارجاً خوف المبتدئين (الخوف من العقاب) .

٣١ ولا يستطيع أى أحد أن يحصل على الخوف الكامل ما لم ينل أولاً الخوف الأولى . كما يقول الحكيم بن سيراخ « **رأس الحكمة مخافة الله . . . كمال الحكمة مخافة الرب** » بن سيراخ ١ : ١٦ و ٢٠ والمقصود بكلمة بدء هو الخوف الأولى الذى يقود إلى الخوف الكامل الذى للقديسين . إن الخوف الأولى هو الخاص بنفوسنا نحن حيث يحفظنا من كل سقوط لأنه قيل : « مخافة الرب ينبوع حياة للحيدان عن أشواك الموت (البعد عن الشر) » أم ١٤ : ٢٧ .

والإنسان الذى يتخلى عن الشر بدافع التخلص من العقاب يشبه العبد الذى يخاف من سيده فيفعل الخير ، ولكنه بالتدريج سوف يصل إلى فعل الخير بإرادته . لكنه فى الأول يكون مثل الأجير الذى يفعل الخير من أجل الحصول على المكافأة ، ولكنه لو إستمر فى تجنب الشر بدافع الخوف من العقاب وفى فعل الخير بدافع الحصول على المكافأة ، فإنه بمعونة الله سوف يستمر فى عمل الخير وبالتدريج سوف يتحد مع الله ، وأخيراً سوف ينال تذوق الخير وسوف يأتى إلى إدراك ما هو خير بالحقيقة ، ولن يرغب قط بعد ذلك أن ينفصل من ذلك الخير .

وعندئذ سوف يصل إلى كمال البنوه وسوف يطلب الخير من أجل الخير ذاته ، ولكنه سوف يستمر أيضاً فى الخوف (الخوف من الحرمان من الشركة والاتحاد مع الله) وهذا هو الخوف العظيم الكامل .

إترك الشر وأفعل الخير :

٣٢ وهذا هو ما عبر عنه داود النبى قائلاً : « **حد عن الشر واصنع الخير . أطلب السلامة واسع وراءها** » مز ٣٤ : ١٤ . حد عن الشر هو أن تتجنب الشر أى تبتعد عن كل عمل يقود إلى الخطية . ولكنه لم يكتف المزمور بأن يقول « **حد عن الشر** » ولكنه أضاف « **وأفعل الخير** » لأن الإنسان أحياناً لا يفعل الشر ، وفى نفس الوقت لا يفعل الخير أيضاً ، مثل الإنسان الذى لا يؤذى أحداً ، ولكنه أيضاً لا يصنع رحمة مع أى أحد ، أو مثل الإنسان الذى لا يكره أحداً ، وفى نفس الوقت لا يحب أيضاً .

ولذلك استمر داود النبى فى قوله « **اطلب السلامة واسع وراءها** » فهو لم يقل أطلب السلامة فقط ولكنه طلب أن نسعى وراءها أى نجاهد لكى ننال . أى يجب أن تتبع ذلك بحرص فى عقلك وأن تسلك مثل القديسين . وهكذا فإن الإنسان حين ينال نعمة ترك الشر ثم بمعونة الله يصنع الخير بكل إجتهاد ، فإنه للحال يصير فريسة لهجوم العدو ، ولذلك فإنه سوف يجاهد ويثابر ويخاف لئلا يرجع ثانية إلى الشر ، ويصير مثل العبد الأجير الذى يعمل من أجل المكافأة . وحين يواجه الهجمات من العدو ويحاربه ويقاومه فى الدوافع الشريرة التى يشنها عليه ، فإن ذلك الإنسان سوف يعمل الخير بكل قوته وقدرته ، وعندئذ ينال معونة من الرب وتصير له عادة فعل الخير وعندئذ سوف يجد راحة وسلام . ولسوف يختبر ذلك الإنسان معنى الحرب التى تسبب الحزن عند السقوط ومعنى الفرح والبهجة التى للسلام . وهو سيبدأ فى طلب السلام لكى يجاهد لنواله ليمتلكه بالتمام ويؤسس ذلك السلام فى نفسه . والذى وصل إلى هذه الدرجة فإنه سوف يختبر ذلك التطويب « **طوبى لصانعى السلام** » مت ٥ : ٩ . ومن ذا الذى يستطيع أن يجبر نفسه على عمل الخير لأى سبب آخر غير الخير ذاته ؟ هذا هو الإنسان الذى إقتنى الخوف الكامل .

كيف أقتنى خوف الله ؟!

٢٣ إن الآباء قالوا أن الإنسان يستطيع أن يقتنى خوف الله إذا إستطاع أن يحفظ فى ذاكرته الموت والعذاب ، وكذلك لو أنه سأل نفسه فى كل مساء كيف قضى اليوم ، وفى كل صباح كيف قضى الليل . ولو أن الإنسان لم يتعال ويتكبر وإستمر فى صداقته مع إنسان آخر له خوف الله فإنه سوف يقتنى خوف الله . لأنه قيل أن أحد الأخوة قد سأل أباً مرشداً ؟ مذا أفعل يا أبى لكى أقتنى خوف الله ؟ فقال له المرشد : إذهب وأسكن مع إنسان فيه خوف الله . لأنك سوف تتعلم منه كيف يكون خوف الله . ونحن نترك خوف الله من أنفسنا حينما نسلك عكس ما سبق أن قلناه ، أى حين لا نذكر الموت والعقاب ، وحين لا ننتبه لأنفسنا ونسأل ذواتنا عن كيفية قضاء وقتنا ، وحين نحيا بلا يقظة وتكون لنا صداقة مع أناس لا يوجد فيهم خوف الله ، وحين نسلك بتعالى وكبرياء . وهذه الأخيرة (الكبرياء) هى أسوأ من الكل لأنها هى الدمار عينه . لأنه لا شىء يطرد خوف الله من النفس أكثر من الكبرياء . وحينما سُئل القديس الأنبا أغاثون عن الكبرياء قال : إن الكبرياء تشبه الريح العاصفة القوية التى تجعل الكل يهرب أمامها حين تهب ، وهذه العاصفة تقتل كل الثمار التى على الأشجار . ليت الله ينقذنا من كل هذه الشهوات المدمرة التى هى الكبرياء .

الكبريـــاء :

٢٤ إن الكبرياء لها أشكال مختلفة الصور ، مثل الكلام أو الاشارة أو النظر ، وهى التى تقود الإنسان إلى الانتفاخ والأحاديث العالمية ، والسلوك فى تصرفات غبية أو تجعله ينتهر الآخرين بالوقائح غير اللائقة ، وهى (الكبرياء) التى تجعل الإنسان يمس الآخرين دون داعٍ ، أو يسخر من الآخرين بالضحك عليهم أو ينتهر آخر أو يخطف شيئاً من يده ، أو يحملق فيه بنوع من الاحتقار ، هذا كله ما تعمله الكبرياء . وكل هذا يأتى من عدم وجود خوف الله فى النفس . وشيئاً فشيئاً يصير الإنسان مهملاً . ولذلك فإن الله قد أعطى وصايا الناس وقال : « فتعزلان بنى إسرائيل عن نجاستهم لئلا يموتوا فى

نجاستهم بتنجيسهم مسكنى الذى فى وسطهم » لا ١٥ : ٣١ لأنه بدون الخشوع والاتضاع لا يستطيع الإنسان أن يكرم حتى الله نفسه ، ولا أن يحفظ وصية واحدة فقط . ولذلك فإنه لا يوجد شيء ضار أكثر من الكبرياء لأنها أم كل الشهوات وهى التى تبدد كل الخشوع وتطرد خوف الله بعيداً عن النفس وهى التى تولد الأهمال .

ضرورة الإرشاد :

٣٥ يقول سليمان الحكيم فى سفر الأمثال « **أما الخلاص فبكثرة المشيرين** » أم ١١ : ١٤ **أنظر ماذا يعلمنا الكتاب المقدس ؟** أنه يعلمنا ألا نتكل على ذواتنا ، ولا نحسب أنفسنا أننا نعرف كل شيء ، ولا نظن أننا نستطيع أن نضبط أنفسنا . لأننا دائماً نحتاج إلى المعونة وإلى أولئك الذين يرشدوننا إلى الله . **ولا يوجد أبأس ولا أقرب من الانحراف أكثر من أولئك الذين** ليس لهم معلمين فى الطريق إلى الله .

إن الذين بلا مرشد يسقطون مثل الأوراق . إن الأوراق تكون أولاً خضراء ومزهره وجميلة ولكنها بالتدريج تذبل وتسقط ثم أخيراً تداس تحت الأقدام ، هكذا الإنسان الذى يسلك بلا إرشاد ، فهو أولاً يكون فى حماس الصوم والسهر والصمت والطاعة والفضائل الأخرى ، ثم يبرد حماسه شيئاً فشيئاً ، ولا يوجد من يسيرّه ويعضده ويوقظه ، ولذلك فهو يجمد ويذبل ويسقط ويصير أخيراً عبداً للأعداء يصنعون معه ما يريدونه .

٣٦ إن الذين يكشفون أفكارهم وأفعالهم ، والذين يصنعون كل شيء بمشورة يقول لهم سليمان الحكيم « **أما الخلاص فبكثرة المشيرين** » أم ١١ : ١٤ .

أما قول سليمان الحكيم « **مقاصد بغير مشورة تبطل وبكثرة المشيرين تقوم** » أم ١٥ : ٢٢ . يفيد وجوب المشورة فى كل شيء ولكن لا نستشير أشخاصاً عديدين ، **أى أننا نأخذ مشورة أب واحد فقط نثق فيه ولا نخبر كل أحد ونأخذ** مشورة من كثيرين . ولكننا نكشف كل شيء ونأخذ المشورة فى كل شيء وعندئذ يصير خلاصنا مضموناً لأننا نأخذ المشورة فى كل شيء .

٣٧ وحينما لا نكشف أفكارنا ونياتنا ولا نطلب مشورة المختبرين ، فنحن عندئذ نعتمد على إرادتنا ونبرر أنفسنا . وعندئذ قد نصنع الخير أحياناً ولكننا ننشر شباكاً لذواتنا ونسقط دون أن ندرى فى تلك الشباك . لأنه كيف نستطيع أن نفهم إرادة الله أو نخضع أنفسنا لها بالتمام حين نثق فى أنفسنا ونميل إلى إرادتنا الخاصة ؟ ولهذا قال أنبا بمين : إن إرادتنا الخاصة هى مثل الحائط النحاس الذى يفصل بيننا وبين الله .

٣٨ إن الشيطان يوجد فى حياة الإنسان الذى يثق فى عقله ويتمسك بمشيئته ، ولكنه لا يقترب من الإنسان الذى يفعل كل شىء بمشورة . ولذلك فإن الشيطان يكره طلب المشورة فى أمر نسأل عنه . فهو يكره صوت طلب المشورة . لأنه يعلم أن حيله الشريرة تتبدد للحال حين يبدأ الناس فى السؤال لطلب المشورة والبحث عن الأشياء النافعة . وهو لا يخاف أكثر من إفتضاحه ، لأنه لا يستطيع أن يتحايل كما يريد حينما يسأل إنسان مرشده ، ويسمع الإنسان نصيحة من ذلك المختبر الذى يقول له إفعل هذا ولا تفعل تلك أو يقول له ليس هذا هو الوقت المناسب لتفعل ذلك الأمر ، وأحياناً يقول له هذا هو الوقت المناسب . ولذلك فإن الشيطان لا يستطيع أن يؤذيه أو يسقطه ، لأن ذلك الإنسان دائماً يطلب المشورة ويحمي نفسه من كل ناحية وعندئذ يتم فيه القول « الخلاص فبكثرة المشيرين » .

٣٩ إن العدو يشبه أولئك الذين يتكلون على فهمهم ، لأن هؤلاء الناس يساعدون العدو ، وينصبون لأنفسهم الشباك . أنا لا أعرف أى طريقة أخرى لسقوط الراهب (أو أى إنسان مجاهد) إلا حين يثق فى فكره الخاص . إن البعض يقول أن الإنسان يسقط بسبب هذا أو ذاك ، ولكننى لا أعرف أى سقوط آخر إلا حين يتبع الإنسان مشورته الخاصة . وإذا رأيت إنساناً يسقط فأعلم أنه إتبع مشورته الخاصة . فلا يوجد شىء أخطر من الكبرياء الذى يقود إلى ثقة الإنسان فى ذاته .

خطية إدانة الآخرين وخطورتها :

٣٠ إننى دائماً أقول لك إن السقوط فى الخطايا الصغيرة هو الذى يقود إلى الخطايا الكبيرة . لأنه ماذا يكون أكثر حزناً من خطية إدانة الآخرين ؟ لأنه ماذا يوجد ما هو مكروه وغريب عن الله مثل هذه الخطية ؟ إن الإنسان يسقط فى هذه الخطية البشعة حين يسمح لنفسه بأن يترك خطاياه الخاصة دون أن ينتبه إليها ثم يلاحظ خطايا أخيه . وهذا هو الذى يقود إلى النميمة والتوبيخ والحديث بالشر ضد الآخرين وأخيراً إدانة الآخرين ثم الكبرياء . وعندئذ لا شيء يغضب الله أكثر من هذا . ولا شيء يفسد الإنسان ويحرمه من النعمة إلا البحث عن خطايا الآخرين والحديث عنهم بالشر وأن يدين الإنسان قريبه .

٣١ أن تتحدث بالشر مع الآخرين هو شيء يختلف عن دينونتهم . حين تتحدث بالشر مع الآخرين كأن تقول أن هذا الإنسان قد كذب أو زنى أو غضب أو فعل أى شيء آخر . فالحديث بالشر على الآخرين هو أن تتحدث عن أخطائهم أو آثامهم ، أما دنيونة الآخرين هى أن تحكم على حياتهم وكل تدبيرهم كأن تقول أن هذا الإنسان كذاب أو زانى أو غضوب . وحين تقول أن هذا الإنسان هو كذا وكذا أو أن هذا الإنسان فعل كذا وكذا فهذه خطية محزنة جداً .

٣٢ إن الفريسى لم يكذب بل قال الحق حين وقف ليصلى وراح يشكر الله من أجل فضائله ، وهو لم يُدن من أجل ذلك لأننا يجب أن نشكر الله حين يمنحنا الفرصة أن نفعل الصلاح ، لأنه قد ساعدنا وعضدنا على ذلك . ولم يُدن الفريسى أيضاً حين قال « أننى لست مثل الآخرين » . ولكنه دين حين نظر إلى العشار وقال : « ولا مثل هذا العشار » يو ١٨ : ١١ لأنه قد سقط فى خطية الأدانة عندئذ ، لأنه أدان هذا العشار فى سلوكه وفى تدبير حياته كلها ، ولهذا رجع العشار مبرراً دون الفريسى (لو ١٨ : ١١ - ١٤) .

٣٣ إن الله فقط هو الذى له حق التبرير أو الأدانة ، لأنه يعرف تدبير نفس كل إنسان وقدرات كل أحد ونياته ومواهبه ومقدرته الجسدية ، ولذلك فإنه وفقاً لكل هذا ، فإنه يبرر أو يدين أى أحد . لأنه من ذا الذى يستطيع أن يعرف كل هذا سوى ذاك الذى قد خلق الكل ويعرف الكل .

٣٤ أحياناً نحن لا ندين الآخرين ولكننا نقود الآخرين إلى ذلك . لأنه توجد إدانة الآخرين ويوجد شىء آخر هو التسبب فى إحتقار الآخرين وإدانتهم ، وذلك حينما نعثر الآخرين ونجعلهم يحتقرون غيرهم . وهذه أسوأ من الدنيونة وأكثر شراً .

٣٥ إن الذين يريدون أن يخلصوا من الأدانة يجب ألا ينتبهوا إلى أخطاء الآخرين ، ولكن ينظروا إلى أخطائهم الخاصة حتى يتقدموا . هذا هو الإنسان الذى حينما يرى أخاه يخطىء يصرخ ويقول لنفسه : الويلى لى إن أخى قد أخطأ اليوم وهكذا أنا سوف أخطىء غداً . ألا تنظر تدبير الإنسان العاقل وكيف يطرد عن نفسه إحتقار أخيه ، لأنه بقوله : ربما أخطىء أنا غداً ، فإنه يملأ نفسه بالخوف من السقوط غداً ، ولذلك فإنه يحذر من السقوط ، ولذلك فإنه يهرب من دينونة الآخرين . وأكثر من هذا فإنه لا يرضى بذلك بل يسجد تحت أقدام أخيه قائلاً : إن هذا الذى أخطأ اليوم سوف يتوب ، أما أنا فربما لا أتوب ، لأننى لا أملك القدرة على التوبة . ألا ترى الإستناره الألهيه للنفس ؟!

٣٦ وقد يحدث أحياناً أن تنتشر إدانة الآخرين من أنفسنا إلى الآخرين ، حتى تصيب أحد الأخوة الذى يكون له سلام مع الآخرين ، وذلك حين نسرع لنحكى له أن هذا وذاك قد حدث ، وهكذا نؤذيه حين ندخل إلى قلبه خطية إدانة الآخرين . ألا نخاف من ذاك الذى قال : « ويل لمن يسقى صاحبه سافحاً حموك ومسكراً أيضاً للنظر إلى عوراتهم » حب ٢ : ١٥ .

ونحن هنا نعمل عمل الشيطان دون أن ندرى . لأنه من غير الشيطان الذى يكون عمله هو الارتباك والأذية ؟ وهكذا نحن نقدم ذواتنا لنصير مساعدين

للشيطان لأجل هلاك وسقوط أخينا . ولكن لماذا يحدث هذا ؟ لأنه لا يوجد فينا حب !! لأن « المحبة تستر كثرة من الخطايا » ١ بط ٤ : ٨ .

الاقتراب من الله والحب هو العلاج :

٣٧ تخيل دائرة لها مركز ولها نصف قطر . وكلما إبتعد نصف القطر عن مركز الدائرة كلما إتسع وإبتعد عن نصف القطر الآخر وينفصلان عن بعضهما بعضاً ويصيران ضدان . وكلما يقترب نصف القطر من المركز كلما يقترب من أنصاف الأقطار الأخرى . والآن نفترض أن هذه الدائرة هى العالم . والله هو مركز هذه الدائرة . وخطوط نصف القطر التى تصل من المركز إلى محيط الدائرة أو من محيط الدائرة إلى المركز هى أسلوب حياة البشر . وها نحن نرى نفس الشىء ، حينما يتحرك القديسون فى إتجاههم خلال الدائرة فإنهم يتجهون نحو مركز الدائرة فهم عندئذ يقتربون من الله ، وحينما يقتربون من المركز فإنهم يقتربون إلى كل من الله وإلى الناس الآخرين أيضاً . وهكذا كلما يقتربون إلى الله فإنهم يقتربون إلى بعضهم بعضاً . وكلما يقتربون إلى بعضهم بعضاً فإنهم يقتربون إلى الله أيضاً . وهكذا أيضاً بالنسبة للابتعاد ، فإنهم كلما يبتعدون عن الله يقتربون إلى الأشياء الأخرى الخارجية ، وكلما يبتعدون عن هذا المركز (الذى هو الله) فإنهم يبتعدون عن بعضهم بعضاً ، وكلما يبتعدون عن بعضهم بعضاً فإنهم يبتعدون بالتالى عن الله . وهذا هو ما يحدث مع صفة الحب ، كلما نبعد عن حب الله فإننا نصير بعيدين عن حب أخوتنا . ولكن إذا ما نحن أحببنا الله فإننا نقترب إليه بالحب وعندئذ نتحد أيضاً مع إخوتنا بالحب . وإذا ما نحن صرنا متحدين مع إخوتنا بالحب فإننا نصير متحدين مع الله .

أسباب عدم احتمال الآخرين :

٣٨ وقد يحدث أن الإنسان يسمع كلمات شتيمة ضده ولكنه لا ينتبه إليها بل يتحملها بلا إضطراب كما لو كان لم يسمعها ، بينما فى أحيان أخرى يضطرب إذا ما سمع تلك الشتائم عينها ؟ وما هو السبب فى ذلك ؟ .

إن الناس لا يضطربون عند سماع الشتائم للأسباب الآتية : أولاً لأن الإنسان بعد الصلاة أو بعد الممارسات الصالحة يكون فى حالة داخلية سليمة ، فهو يكون لطيفاً ومتسامحاً مع أخيه ، ولا يضطرب لأجل كلماته . والسبب الثانى للاحتمال ربما لان الإنسان يشعر بزيادة الحب والحنان نحو شخص معين ولذلك فإنه يتحمل كل ما يأتى منه بدون تعب . وثالثاً قد يحدث أن الإنسان لا ينتبه لاهانات الآخرين وشتائمهم (لانشغاله بالله) . والناس أيضاً تضطرب لأجل الأسباب العكسية ، إما لأنهم ليسوا فى حالة داخلية جيدة ، أو لأنهم يكرهون الإنسان الذى أهانهم ، أو لأسباب أخرى . ولكن السبب الرئيسى لاضطرابنا هو لأننا لا نلوم أنفسنا .

لـــوم النفس :

٣٩ قال الأنبا بيمن : أينما يذهب الإنسان الذى يلوم نفسه ، فإن أى شىء يقابله من الاحتقار والأهانات أو المصائب التى تصيبه ، فإنه يحسب نفسه أنه مستحق لها . وهذه هى طريقة التحرر من الاضطراب ، ولا يوجد وسيلة أخرى غيرها .

٤٠ قال أحد الأخوة : لو ضايقنى أحد ، فإننى أفتش نفسى ، وعندما أجد أنه لا يوجد فىّ ما يسبب ذلك ، فكيف ألوم نفسى ؟ ! أجابه الشيخ : لو أن الإنسان قد فتش ذاته بخوف الله ، فإنه سوف يكتشف أنه هو السبب لكل ذلك سواء بالكلام أو بالأفعال أو بالنظر . وحتى لو ثبت أنه فى هذه المرة بالذات لم يكن هو السبب فى إستحقاق تلك الأهانة ، فإنه سوف يكتشف أنه فى أحيان أخرى وبطريقة أخرى ربما يكون قد ضايق أخاً آخر ، ولذلك يجب أن يتحمل ذلك كنتيجة لخطايا أخرى . ولذلك أنا أقول لو أن الإنسان قد فتش نفسه بخوف الله ، وباستقامة يسأل ضميره فإنه سوف لا يكف عن إكتشاف جرمه وسوف يلوم نفسه .

الأهانات تكشف العيوب :

٤١ قد يحدث أن الإنسان طالما يحيا بعيداً عن الناس فهو فى سلام ، ولكن حين يأتيه أخ آخر ويتحدث معه فى أمور لا تسره ، فإنه للحال يضطرب ويقول : لو لم يأتنى هذا الأخ ما كنت قد أخطأت (بإدانة الآخرين) . فهذه مناقشة سخيفة . وهل حقيقة أن الأخ الذى زاره هو الذى أدخل إليه تلك الخطية ؟ إنه فقط قد إستدعى للسطح الشهوة الموجودة فعلاً . ولذلك يجب أن يتوب ذلك الإنسان ويلوم نفسه ولا يلوم ذلك الشخص الآخر الذى زاره . وهذا الإنسان يشبه الرغيف الفاسد الذى يظهر من الخارج أنه سليم ولكنه عفن من الداخل . فلو أن أحداً كسر هذا الرغيف فإنه للحال تظهر عفونته . أو هو يشبه الأناء النظيف من الخارج ولكنه من الداخل مملوء بالقاذورات ، ولذلك فإن كل من يفتح ذلك الأناء فإنه فى الحال يتحقق من الرائحة الكريهة . فهكذا ذلك الإنسان الذى يحيا بعيداً عن الناس ويبدو أنه فى سلام ، ولكنه غير منتبه للشهوات المزروعة فى داخله ، ولكن حين يقول له أحد الأخوة كلمة جارحة فإنه يكشف العفن الموجود فى داخله . ولكن لو أراد ذلك الإنسان أن ينال رحمة الله فيجب عليه أن يتوب ويلوم نفسه ، وبهذه الطريقة فقط يتطهر ويتقدم . ويجب عليه عندئذ أن يشكر ذلك الأخ الذى ضايقه من أجل الفائدة التى قدمها له .

الخطية والصلاح :

٤٢ كلما تخطىء النفس كلما تصير ضعيفة ، لأن الخطية تضعف الإنسان ، وكلما يسقط الإنسان تثقله الخطية إلى أسفل . ولكن إذا تقدم الإنسان فى الصلاح فإن ما كان ثقيلاً من قبل يصير سهلاً الآن .

الشكر على كل الظروف :

٤٣ فى كل الظروف التى تواجهنا ، سواء صنع الناس معنا خيراً أم شراً ، يجب أن نرفع عيوننا إلى فوق ، ونشكر الله على كل شىء يحدث لنا ، ونلوم أنفسنا فقط ونعتبر أن كل خير يحدث لنا هو من أجل عناية الله الرحيمة . وأن ما يحدث لنا من الاساءات هو نتيجة لخطايانا الخاصة .

الغضب :

٤٤ لقد قال آباؤنا : إن الغضب وعثره الأخرين هما أمران لا يتصلان بالرهبان قط . إن الذى قد هزم الغضب قد هزم الشياطين ، ولكن الذى هو مهزوم من هذه الشهوة فهو غريب عن الرهبنة . وهكذا ما يجب أن نقوله عن أنفسنا ليس فقط حين نسقط فى الغضب والانفعال ولكن حين نستمر فى الحقد أيضاً ، أننا عندئذ نصل إلى حالة اللاإنسانية . ولكن يجب أن ننتبه إلى ذواتنا ، وأن نجاهد بمعونة الله ، لكى نحرر أنفسنا من مرارة شهوة الغضب المؤذية .

الحقد :

٤٥ وقد يقوم الاضطراب والحزن بين الأخوة ، ولكنهم يسرعون سريعاً لتهدئة هذه الأمور . وبذلك تخمد هذه الثورة ويحل السلام . ولكن قد يؤذى إنسان شعور أخيه ويفكر ضده بالحقد وعندئذ يحتاج الأمر إلى إهتمام كبير لكى يخمد هذا الحقد . إن الإنسان الذى يصنع سلاماً فى الحال مع أخيه الذى يتعارك معه فإنه يشفى من الغضب الذى إنتابه ، ولكنه لم يصنع شيئاً ضد الحقد . ولذلك يستمر فى الغيظ الداخلى ضد أخيه . لأن الحقد هو شىء آخر غير الغضب مثل إختلاف العراك الخارجى عن الاضطراب الداخلى ، وهذا ما يجب أن نفهمه جيداً وسوف أعطيك مثالاً لذلك : حين تريد أن تصنع ناراً فإنك أولاً تأتى بقطعة صغيرة من الشرارة المتقده ، وهذه هى الكلمة التى قالها أحد الأخوة وضايقك بها . وإذا ما أنت تحملتها فإنك تكون عندئذ قد أطفأت الشرارة المتقده . ولكن إذا ما أنت فكرت قائلاً : لماذا قال هذا ؟ وإذا كان هذا

هو السبب فأنا سوف أقول هذا أو ذاك له . وإذا رغب ألا يؤذينى ما كان قال. هذا . وأنا سوف أضايقه كما ضايقنى . وهكذا فإنك تضع بعض الخشب المتقد أو الوقود على النار لكى يشعلها ، وعندئذ تكون قد أشعلت النار الذى هو الضيق . إن الضيق هو التحرك وإنفعال الأفكار التى تثير القلب . والانفعال هو الرغبة فى الانتقام ضد الأخ الذى ضايقك وعندئذ توجد الكبرياء .

لقد قال القديس مرقس : إن الحقد تغذيه الأفكار وإنفعال القلب ، ولكن الصلاة تبيد كل ذلك . إن الكلمة البسيطة التى قالها أخوك ، إذا ما أنت لم تلتفت إليها فإنك تكون بذلك قد أطفأت الشرارة قبل أن تنتج المضايقة . وإذا ما رغبت فإنك بسهولة تستطيع أن تطفىء حتى هذا الاضطراب فى أوله عن طريق الصلاة والصمت والاتضاع القلبى . ولكن إذا داومت فى إشعال النار ، بأن تثير القلب وتشعله بالأفكار التى تقول : لماذا فعل هذا . . . أنا سوف أفعل تلك . فإن ذلك سوف يشعل قلبك ويولد الآثارة . وإذا رغبت فإنك تستطيع أن تطفىء الآثارة قبل أن تؤدى بك إلى الغضب . ولكن إذا داومت فى الاضطراب والآثارة فإنك تعطى الوقود للنار ، وعندئذ تضع لهباً شديداً هو الغضب الذى يقود إلى الحقد حيث لا يستطيع الإنسان أن يتخلص منه ما لم يجاهد حتى الدم .

قطع الشهوات فى بدايتها :

٤٦ لقد سمعت عن الانفعال الأول وعن الآثارة والغضب والحقد . والآن انظر كيف أنه من الممكن أن يصل الإنسان إلى الشر من كلمة واحدة !!

ولكن إذا بدأت فى لوم نفسك ، وتحملت بصبر كلمة أخيك ، ولم ترغب فى الانتقام منه ، بأن ترد على الكلمة بكلمتين أو خمسة ، أو ترد على الشر بشر فإنك تكون قد شفيت من كل هذه العلل . ولذلك أنا أقول لك : إقطع الشهوات دائماً ما دامت فى البداية قبل أن تنمو جذورها وتقوى فى داخلك وتقاومك ، وعندئذ سوف تواجه منها أتعاباً كثيرة . لأنه يوجد فرق بين أن تقطع العشب وبين أن تقتلع شجرة كبيرة .

أنواع الحقد المختلفة :

٤٧ ربما يرد الإنسان على الشر بشر آخر ، ليس بالفعل ولكن بالكلام أو الانفعال . وقد يظن الإنسان أنه لم يرد الشر بالشر طالما لم يتم ذلك عن طريق الأفعال . ولكنه حقيقة قد فعل ذلك عن طريق الكلام أو عن طريق الانفعال مثل الإشارة أو النظرة . لأن ذلك كله من الممكن أن يثير أحد الأخوة ، وهذا هو رد الشر بالشر . وأحياناً يرد الإنسان على الشر بالشر ليس بالفعل أو القول أو التعبير أو الإشارة ، ولكن يتم ذلك فى القلب حين يسود الحقد والغضب فى قلبه ضد أخيه . والبعض الآخر لا يوجد فى قلبه بغضه ضد أخيه ، ولكنه إذا نظر إنساناً آخر يشتم ذلك الأخ أو يحتقره فإنه يفرح بذلك ، وهو بذلك يرد أيضاً الشر بالشر فى قلبه . ويوجد إنسان آخر لا يوجد حقد فى قلبه ولا يفرح بمضايقة الآخرين لذلك الأخ الذى ضايقه ، ولكنه لا يفرح بنجاح ذلك الأخ الذى شتمه ، فهو يتضايق حين يمدح أو ينال كرامة . وهذا أيضاً نوع من الحقد ولكنه أقل أنواع الحقد كلها .

٤٨ قد يحدث أن إنســانــاً يضايق آخر ، ثم يتضع كل منهما للآخر ويتصالحان ، ويحيا كل منهما فى سلام مع الآخر ، ولا يوجد فى قلب ذلك الإنسان أى أفكاره شريرة ضد من ضايقه . ولكن يحدث أحياناً أن نفس الشخص يضايقه مرة أخرى ، ولذلك فإنه يضطرب ليس فقط من أجل المضايقة الثانية بل من أجل المضايقة الأولى أيضاً . وهذا يشبه إنساناً جرح وخمد جرحه وشفى ذلك الجرح ، ولكن ما زال مكان الجرح ضعيفاً ، ولكن لو حدث أن إنساناً ألقى حجراً على مكان الجرح ، فإن مكان الجرح هذا يتألم جداً أكثر من بقية الجسد ويبدأ الجرح عندئذ فى النزيف . وهذا معناه أن الجرح قد التأم ولكنه لم يشفـ تماماً ، لأنه ما زال يوجد حقد ، لأن الجرح يفتح بسهولة لو أن الإنسان أخذ ضربة بسيطة .

كيفية الشفاء من الحقد :

٤٩ لذلك يجب أن نحاول أن ننظف تماماً العفن الداخلى لكى يشفى مكان الجرح تماماً بدون أى تشويه ، حتى أنه يصعب أن نعرف أين هو مكان الجرح . ولكن كيف نحصل على ذلك ؟

نحصل عليه حين نصلى من كل القلب من أجل من ضايقك ، ونقول لله : يا رب ساعد أخى وساعدنى بصلواته . وعن طريق الصلاة من أجل أخيك فإنك تقدم حباً وشفقه وطلب المعونة الآلهية من أجل صلوات أخيك وعندئذ تتضع . وحيثما توجد شفقة وحب واتضاع ، فكيف يصير للحقد والغيظ أو أى شهوة أخرى مكاناً ؟

لقد قال أيضاً أنبا زوسيما : لو أن الشيطان نشر كل حيله عن طريق جنوده بكل خبث ، فإن كل حيله سوف تتبدد بالاتضاع حسب وصية السيد المسيح . وقد قال أحد الآباء المرشدين أيضاً : إن من يصلى من أجل عدوه لن يوجد لدية أى حقد .

ضرورة العمل والممارسة الروحية :

٥٠ يجب أن ننفذ وصايا الآباء بأعمالنا ، وعندئذ سوف نحصل على فهم صحيح لكل ما قالوه . وإذا لم تفعل ذلك فإنك لن تفهم عمل الجهاد الروحى من مجرد الكلام فقط . مثل الإنسان الذى يريد أن يتعلم حرفة ما ، فهل يتعلمها من مجرد الكلام والاستماع ؟ كلا لأنه يتعلم أولاً ثم يخطىء ويتعلم ثانياً ، ثم يخطىء فى الممارسة ، وشيئاً فشيئاً عن طريق الممارسة والعمل فإنه سيتعلم العمل الروحى بمعونة الله الذى يلاحظ عمله وقصده . ولكن الذى يحدث أننا نريد فقط أن نتعلم أى حرفة (فضيلة روحية) من مجرد الكلام فقط بدون أى عمل . وهل يمكن هذا ؟ ولذلك دعنا نتنبه ونصلى بكل يقظة ما دام توجد فرصة للعمل .

الكـــذب :

٥١ إن الإنسان يجب أن يهتم جداً لكى لا يسقط فى الكذب ، لأن الكـذاب لا يمكن أن يتحد مع الله ، لأن الكذب غريب عن الله ، والكتـاب المقـدس يقـول عن الشيطان أنـه « كذاب وأبـو الكـذاب » يو٨ : ٤٤ وبهذا يقال أن الشيطان هو أب الكذب . ولكن الله هو الحق لأنه هو نفسه يقول : « أنا هو الطريق والحق والحياة » يو ١٤ : ٦ . ولذلك يجب أن ننتبه لمن نحن ننتسب وعن من نحن نبتعد ؟ إذا أردنا حقيقة أن نخلص يجب أن نحب الحق من كل قدرتنا ومن كل حماسنا ، ويجب أن نحرس أنفسنا من كل كذب لئلا يفصلنا الكذب عن الحق والحياة .

أنـــواع الكـــذب :

٥٢ يوجـد ثلاثـة أنـواع من الكـذب : أحدهما حين يكذب إنسان بفكرة ، والثانى أن يكذب بالكلام ، والثالث هو الذى يكذب بحياته . الإنسان الذى يكذب بفكره هو ذاك الذى يقبل تخيلاته وإفتراضاته على أنها حق رغم كونها ظنـون كاذبـة نحـو الآخـرين ، فإذا رأى إثنـين يتنـاقشان ويتحـاوران ، يقـول فى نفسه : إنهما يتكلمان ضدى ، فهذا هو الإنسان الذى يكذب بفكره ، لأن كل ما يظنه ليس حقاً ولكنه مجرد رأى خاص به ، وهذا يقوده إلى الأحاديث الشريرة والنميمة والأدانة والبغضه . والنوع الثانى من الكذب حين يكـذب الإنسان بالكلام ، حينما يكون إنسان مهملاً فى الصلاة والسهر ولكنه لا يقول (للمسئول) سامحنى لأننى لم أستيقظ بسبب كسلى ، بل يقول : لقد كنت مريضاً أعانى من الحمى ، ويختلق سلسلة طويلة من الكذب حتى لا يتضع وينحنى للآخـرين . ومثـال آخـر إذا كان إنسـان محتاجاً لشىء ولكنه لا يقول بصراحة إننى محتاج لهذا الشىء ، ولكنه يتحايل ويلف ويدور ، وينتحل المرض أو الفقر ، ويكذب حتى يأخذ مراده ، والناس تصل فى النهاية إلى عدم تصديق مثل هذا الإنسان حتى لو قال الصدق . والنوع الثالث من الكذب حين يكذب الإنسـان بحياتـه ، مثـل الإنسان الزانى الذى يتظاهر بالعفة ، أو الظالم الذى يتظاهر أنه رحوم ، أو المتكبر الذى يأخذ شكل المتواضع .

اليقظة الدائمة :

٥٣ دعنا نتحدث بعناية عن أنفسنا . من ذا الذى يستطيع أن يرجعنا إلى الزمن مرة ثانية لو أننا أضعناه ؟ إن الوقت سوف يأتى لا محالة لكى نطلب تلك الأيام (التى تعبر) ولكننا لن نجدها . أن الأنبا أرسانيوس قد إعتاد أن يقول لنفسه : يا أرسانيوس انظر لماذا تركت العالم .

الجهاد والمثابرة :

٥٤ وإذا ما نحن أردناأن نجاهد قليلاً فإننا لن نواجه أى صعوبات أو مضايقات . لأنه لو حث الإنسان نفسه لكى يجاهد باستمرار ، فإنه سوف يتقدم تدريجياً ، وأخيراً سوف يمارس الفضيلة بهدوء . لأن الله حينما يراه يثابر سوف يرسل له المعونة . لذلك دعنا نحث أنفسنا ، لأننا لم نصل بعد إلى الكمال ، وإذا ما نحن جاهدنا فإننا سوف نأخذ معونة فى جهادنا ، وخلال هذه المعونة سوف نحرز كل أنواع الفضيلة . ولذلك قال أحد الآباء [قدم دماً وخذ روحاً] ومعناها جاهد وسوف تسلك فى الفضيلة .

التكريس والإعتدال :

٥٥ مثل الإنسان الذى يريد أن يصير نجاراً فإنه لا يعمل فى أى حرفة أخرى ، هكذا الذين يريدون أن يتعلموا الممارسات الروحية يجب ألا ينشغلوا بأى شىء آخر ، بل يجاهدون ليلاً ونهاراً لكى يكسبوا ذلك . وقال أحد المرشدين : إسلك فى الطريق الملوكى (الطريق الوسطى) واحسب حساب النفقة . لأن الفضيلة تقف فى الوسط ما بين الزيادة والنقص ، لأن الكتاب المقدس يقول « فاحذروا لتعملوا كما أمركم الرب آلهكم . لا تزيغوا يميناً ولا يساراً » تث ٥ : ٣٢ .

« حسب الشريعة التى يعلمونك والقضاء الذى يقولونه لك تعمل لا تحد عن الأمر الذى يخبرونك به يميناً أو شمالاً » تث ١٧ : ١١ . وهكذا يجب أن نسلك فى الطريق الملوكى (المعتدل) .

الشر وعواقبه :

٥٦ إن الشر هو لا شيء ، لأن الشر لم يخلق وليس له أى وجود . ولكن النفس حين تنحرف عن الفضيلة فإنها تمتلىء بالشهوات ، وعندئذ تولد الخطية وتواجه التعب ، لأنها لن تجد أى راحة فى الخطية . وذلك مثل الدود الذى يوجد فى أعماق الأشجار ولكن لو دب العفن فى الأشجار فإن هذا العفن سوف ينتج دوداً (سوساً) يأكل الخشب . هكذا فإن النفس التى تصنع شراً ثم تتألم من هذا الشر . إن القديس اغريغوريوس الثيؤلوغوس قال : إن النار تأتى من الأشياء وهى تلتهم الأشياء كما تلتهم الخطية الأشرار .

الأهمال والفضيلة :

٥٧ نحن نرى نفس الشيء فى المرض الجسدى ، فإذا أهمل الإنسان فى صحته ، فإن ذلك سيؤدى إلى إرتباك بالنقص أو الزيادة فى الأمور الجسدية فينشأ المرض . ولكن قبل هذا الأهمال لم يكن هناك أى مرض . ولكن بعد شفاء المريض لن يوجد المرض نهائياً . هكذا أيضاً الخطية فهى مرض النفس ، وصحة النفس هى الفضيلة .

التوبة والفضيلة معاً :

٥٨ يجب على الإنسان أن يقتلع الشهوات وأيضاً أسباب تلك الشهوات ، وعندئذ يشفى الإنسان ويثمر فى تدبيره عن طريق التوبة والحزن ، وعندئذ فقط يبدأ فى زرع البذور الجيدة التى هى الأفعال الصالحة . لأنه بعد تطهير الحقل ووضع السماد يجب حرث الأرض حتى لا تأتى الحشائش وتمسك فى تربة الأرض . وهكذا مع الإنسان الذى يتوب عن أفعاله الماضية ويغير طريقه ولكنه لا يجاهد لكى يقتني الفضائل فإنه يتم فيه قول الإنجيل بخصوص الروح الشرير : « يأتى ويجده فارغاً مكنوساً مزيناً ثم يذهب ويأخذ معه سبعة أرواح آخر أشر منه فتدخل وتسكن هناك . فتصير أواخر ذلك الإنسان أشر من أوائله » مت ١٢ : ٤٣ ـ ٤٥ .

حد عن الشر واصنع الخير :

٥٩ كل إنسان يريد أن يخلص لا يجب فقط أن يضبط نفسه من فعل الشر ، بل يجب أيضاً أن يفعل الخير كما يقول المزمور « حد عن الشر واصنع الخير » مز ٣٤ : ١٤ .

وعلى سبيل المثال لو أن إنساناً سقط فى الغضب ، يجب عليه ليس فقط أن يمتنع عن الغضب بل أن يحرز الوداعة أيضاً . ولو أن إنساناً سلك فى الافتخار فلا يجب فقط أن يكف عن الافتخار والكبرياء بل يجب أيضاً أن يصير متواضعاً ، لأن كل شهوة لها فضيلة عكسها . الكبرياء لها الاتضاع ، والجشع له الحب والحنان (فى العطاء) والزنا له الطهارة ، واليأس له طول الأناه ، والغضب له الوداعة ، والكراهية لها الحب .

طاعة الشهوات تجلب الحروب بعد ذلك :

٦٠ لا يجب أن ننزعج حين تهاجمنا الشهوات . ولماذا تتعجب حين تثيرك الشهوات ؟ لأنك أنت نفسك الذى أوجدت هذه الشهوات ، وإرتضيت أن تحتفظ بهذه الشهوات فى نفسك ، ولماذا تنزعج إذن ؟ لقد قبلت أن تتعامل مع هذه الشهوات ثم تنزعج بعد ذلك . إن الأفضل لك أن تحتمل وتجاهد وتطلب من الله أن يعينك ، لأنه يستحيل على الإنسان الذى يطيع الشهوات ألا تهجم عليه وتؤذيه . إن القديس شيشوى يقول : إن إناء هذه الشهوات هو فى نفسك . أرفض التعامل معها وهى سوف تتركك . لأننا قد أحببنا هذه الشهوات وحولناها إلى أفعال ولذلك أصبح مستحيلاً علينا أن نرفض هذه الشهوات التى تثيرنا حتى لو كانت إثارتها ضد إرادتنا لكى تطيع تلك الشهوات . لأننا بإرادتنا قد أسلمنا أنفسنا لأيديها .

ضرورة الجهاد لعدم السقوط :

٦١ إن الإنسان يهاجم من الأفكار الشريرة قبل أن يبدأ فى ممارسة أفعالها . ولكنه طالما هو فى دائرته (أى لم يخضع لها) فهو حر ويستطيع أن يحصل على معونة الله . ولذلك على قدر ما يتضع أمام الله ويجاهد قليلاً ، فإن معونة الله تأتى لكى تخلصه من هجوم الشهوات ولكن إذا لم يجاهد فإنه سوف يسقط فى الملذات ويقود نفسه للفحشاء ، وسوف تبتعد عنه معونة الله وتخدعه الشهوات لكى يرتكب الأفعال الشهوانية ، وبعد ذلك سوف يخدم هذه الشهوات ، سواء أراد أم لم يرد .

طاعة الوصايا هو بناء البيت :

٦٢ إن خوف الله يحث النفس أن تحفظ الوصايا ، وبطاعة الوصايا يتم بناء النفس . ولذلك دعنا نخاف الله ونبنى منازل لأنفسنا لكى نجد ملجأ فى الشتاء فى أوقات المطر والرعد . لأن الإنسان الذى بلا منزل يواجه صعوبات شديدة فى الشتاء .

كيفية بناء بيت النفس :

٦٣ ولكن كيف نبنى منزل النفس ؟ إن هذا هو ما تتعلمه من طريقة بناء البيوت العادية . إن الذى يبنى بيتاً يجب أن يقيم حوائط على الجوانب الأربعة ، ولا يكون الحائط على ناحية واحدة فقط حتى لا يضيع الوقت والجهد . فهكذا أيضاً على الإنسان الذى يريد أن يبنى منزل النفس ألا يهتم بناحية واحدة فقط من نواحى البناء ، بل يجب أن يهتم بكل النواحى بتوافق وتناسق . وهذا هو ما عناه القديس يوحنا حين قال : أنا أريد أن الإنسان يقتنى كل يوم قليلاً من كل فضيلة . ولا يفعل مثل الآخرين الذين يهتمون بفضيلة واحدة فقط يمارسها بمفردها ، ولا يهتم ببقية الفضائل الأخرى .

٦٤ إن منـزل النفس يبنى بتناسق وإنتظام كالآتى : يجب أن يضع الإنسان أساساً للبناء الذى هو الإيمان لأنه « بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه » عب ١١ : ٦ وفوق هذا الأساس يجب أن يبنى البيت بتناسق ، فيجب أولاً أن يوضع فى الأسفل حجر الطاعة ، وإذا حدث أن ضايقك أى أحد فيجب أن تضع حجر الأحتمال ، وفى مناسبة أخرى حجر ضبط النفس ، وهكذا يجب أن تضع كل حجر من كل فضيلة . وفى كل مناسبة فإن الظروف هى التى تفرض نفسها . وبذلك يتم البناء فى كل ناحية ، حين تضع حجر الرحمة ومرة أخرى حجر قطع المشيئة ومرة أخرى حجر الوداعة وهكذا . ومع كل هذا يجب أن تهتم بالصبر والشجاعة ، لأن هذه هى أحجار الزاوية التى تربط البناء وتربط الحوائط ببعضها ولا تجعل الحوائط تميل إلى الخارج وتنفصل الحوائط عندئذ عن بعضها بعض . إنه بدون الصبر والشجاعة يستحيل على الإنسان أن يقتنى أى فضيلة لأنه قيل : « بصبركم اقتنوا أنفسكم » لو ٢١ : ١٩ .

٦٥ إن الإنسان الذى يبنى بيتاً لابد أن يستعمل المونة . لأنه لو وضع حجراً مع آخر بدون مونة فإن الحجارة تسقط والبيت يهدم . إن المونة فى بناء النفس هى الاتضاع . وكما تؤخذ المونة من التراب الذى تحت الأقدام هكذا فإن ممارسة أى فضيلة بدون إتضاع لا تكون فضيلة . وهذا هو ما قاله الآباء : كما أن السفينة لا يمكن أن تبنى بدون إستخدام المسامير ، هكذا فإن الإنسان لا يمكن أن يخلص بدون الاتضاع .

إن البيت العادى لابد أن يكون له سقف . وسقف بيت النفس هو الحب الذى هو كمال الفضائل . وكما أن سقف البيت هو كمال الانتهاء من البيت . وحول السقف لابد أن يوجد السور كما يقول الناموس : « إذا بنيت بيتاً جديداً فأعمل حائطاً (سوراً) لسطحك لئلا تجلب دماً على بيتك إذا سقط عنه ساقط » تث ٢٢ : ٨ . إن سور بناء النفس هو الرذانة واليقظة والصلاة . والأطفال الذين نخاف سقوطهم من السقف هم الأفكار الموجودة فى النفس التى يحميها الرذانة والصلاة .

٦٦ وهناك شيء مطلوب في هذا البناء ، وهو مهارة الشخص الذي يقوم بالبناء . لأنه إذا كان الباني غير ماهر فإنه يجعل الحائط معوجاً وسوف ينهدم المنزل يوماً ما . هكذا فإن الإنسان يكون حاذقاً لو مارس الفضيلة بذكاء . لأنه قد يتعب الإنسان في الفضيلة ولكن لأنه يعمل بلا ذكاء فإنه يدمر العمل بنفسه ولا يكتمل البناء لأنه يبني ويدمر ما يبنيه .

٦٧ وهذا مثال من أمثلة عديدة . إذا صام الإنسان بدافع المجد الباطل ويكون قد نال تفوقاً في الصوم ، فإنه يكون قد صام بغباء ، ويبدأ بعد قليل في نقد أخوته ، ظاناً أنه أفضل منهم ، وهذا معناه أنه قد بنى طوبة واحدة ولكنه قد هدم من البناء طوبتين إثنتين ، وفوق هذا أيضاً فإنه يسقط لأسفل الحائط كله خلال دينونته لأخيه .

أما الإنسان الذي يصوم بحكمة فإنه لا يظن أنه يفعل شيئاً جيداً مميزاً ، وهو لا يريد أن ينال مديحاً لأجل صومه ، ولكنه يظن أنه من خلال تقشفه سينال الطهارة وعندئذ سوف يصل للاتضاع كما يقول الآباء : إن الطريق إلى الاتضاع هو العمل الجسدي الذي يمارس بإفراز (أي بحكمه) . وهكذا يبرهن الإنسان على أنه يبني بمهارة وعندئذ يستطيع أن يبني بيتاً متماسكاً .

الصعود الروحي :

٦٨ إياك أن تنخدع بالتفكير أن الفضيلة تزيد قوتك وتجعل من المستحيل هزيمتك . ولكن من خلال الإيمان إبدأ بكشف إرادتك الحسنة ويقظتك لله ، وعندئذ سوف ترى المعونة التي يرسلها لك الله لكي تمارس الفضيلة . وتخيل أنه يوجد سلمان أحدهما يصعدك للسماء والآخر يهبطك إلى الجحيم ، وأنت تقف في الأرض ما بين الأثنين . ولا تظن أن تفكر أو تقول كيف أستطيع أن أصل إلى قمة السلم الذي يوصلني إلى أعلى السماء ؟ إن كل ما يجب أن تهتم به هو أن تضبط نفسك من الهبوط لأسفل عن طريق فعل الشر . ولكي تصعد إلى أعلى ، جاهد أن تتسلق شيئاً فشيئاً بأن تفعل الخير . وكل خير تفعله سيكون بمثابة درجة للصعود إلى أعلى . فأصعد هكذا بمعونة الله من درجة إلى درجة وعندئذ سوف تصل أخيراً إلى قمة السلم .

أسألوا وأطلبوا واقرعوا :

٦٩ لو سألنا سوف نعطى ولو طلبنا سوف نجد لأن الإنجيل يقول : **« إسألوا تعطوا . أطلبوا تجدوا . اقرعوا يفتح لكم »** مت ٧ : ٧ . إن معنى أسألوا هو أن نأخذ معونة من الله لمساعدتنا فى الصلاة حين نسأل . وأن نطلب معناه أن نعرف كيف تأتى الفضيلة وكيف نقتنيها . ولذلك يجب أن يكون كل جهدنا هو لكى ننال تلك الفضيلة . ومعنى أن نقرع هو أن نمارس الوصايا . لأن كل من يقرع يستخدم يديه والأيدى معناها العمل . ولذلك يجب ألا نكتفى بالسؤال ولكن بالطلب والعمل والجهاد وفقاً لقول الرسول بولس : **« لكى يكون إنسان الله كاملاً متأهباً لكل عمل صالح »** ٢ تى ٣ : ١٧ . وذلك هو كمال الإستعداد أن نكمل إرادة الله بحكمة كما يريدها الله وكما ترضيه .

العمل المقبول من الله :

٧٠ إن الرسول بولس يوصينا قائلاً : **« لتختبروا ما هى إرادة الله الصالحة المرضية الكاملة »** رو١٢ : ٢ . ولكن لكى ننفذ هذه الوصية نحن نسأل : ما هى تلك الأرادة الصالحة التى لله ؟ هى أن يحب كل أحد الآخر وأن نكون شفقاء ورحماء . لأن هذه هى إرادة الله . ولكن ما هو قبول إرادة الله ؟ ليس كل شىء صالحاً يعمله الإنسان يكون مقبولاً من الله ، مثل ذاك الذى يحسن إلى إنسانة يتيمة أو فقيرة ليس بسبب فقرها ولكن بسبب جمالها .

إن المقبول عند الله هو أن يفعل الإنسان الخير بدون أى دافع بشرى ولكن من أجل الله الذى أمر بهذا . ولذلك يجب أن نفعل الصلاح من أجل الصلاح نفسه ، وبدافع الرحمة فقط ، وهذا هو العمل المقبول من الله . وأخيراً إن إرادة **الله الكاملة هى حينما يعمل الإنسان عمل الرحمة بلا تذمر أو إزدراء أو كسل بل** بكل قدرته وإرادته ، مثل من يعطى الرحمة كما لو كان هو نفسه الذى يأخذها ، ويكون كريماً فى العطاء كما لو كان هو نفسه الذى يأخذ هذا الكرم ، وعندئذ تكمل مشيئة الله . وهكذا يكمل الإنسان الصلاح حسب إرادة الله المقبولة الكاملة .

خطية النهم (الشراهة فى الأكل) :

٧١ يوجد نوعان من النهم : أولهما حين يطلب الإنسان أنواعاً معينة من الطعام لكى يتلذذ بها . وهو لا يطلب أن يأكل كميات كبيرة ، ولكنه يطلب أنواعاً مخصوصة تفرحه ويتلذذ بها . والنوع الثاني من النهم هو أن يطلب الإنسان أن يأكل كميات كثيرة ، فهو لا يطلب أنواعاً معينة من الطعام من أجل مذاقها ، ولكنه يريد أن يأكل ويأكل . وهو لا يبالى بنوع الطعام ، ولكنه فقط يريد أن يملأ بطنه . إن النوع الأول من النهم يطلق عليه جنون التذوق ، والنوع الثانى هو جنون المعدة . وإن أراد أحد أن يصوم لكى يطهر نفسه من الخطية فيجب عليه أن يتجنب هذين النوعين من النهم ، لأن كُليهما من أجل الشهوة وليس من أجل سد إحتياج الجسد . ولو مارس الإنسان أى نوع من أنواع النهم هذه فإنه يكون قد أخطأ عندئذ .

الصوم الحقيقى :

٧٢ وفى فترة الصوم يجب أن يتخلى الإنسان ليس فقط عن هذين النوعين من النهم فى الأكل ، بل يجب عليه أن يمتنع عن كل خطية ، لأنه حينما تصوم البطن يجب أن يصوم اللسان أيضاً بأن يمتنع عن كل أنواع الخطايا التى يرتكبها . ويجب أيضاً أن تصوم العينان بألا تنظرا إلى الأشياء الفانيه وألا تنظرا أى نظرة شريرة بلا خوف لأى أحد . وهكذا أيضاً تصوم اليد والرجل حين لا تفعل كل منهما أى خطية .

الشك وسوء الظن :

٧٣ حين نتعامل مع الآخرين يجب أن نتجنب أولاً الشك فيهم ، لأن ذلك يقودنا إلى دينونتهم ويوجد لدىّ أمثلة كثيرة تؤكد الحق أن الإنسان يحكم على الآخرين حسب نفسيته الخاصة . وأنا سوف أقدم لك مثلاً لذلك . إفترض أن إنساناً واقفاً فى الليل ، مرّ عليه ثلاثة أشخاص ، فظن أحدهم أنه واقف ينتظر آخر ليذهبا معاً ليمارسا الزنى . والثانى ظن أنه لص ، والثالث ظن أنه ينتظر إنساناً ليذهب معه للصلاة . فهاهم ثلاثة أشخاص قد رأوا

نفس الشخص فى نفس المكان ، ولكن لم يكن لهم نفس الرأى ، حيث كوّن كل منهم رأياً خاصاً به حسب حالته هو . وذلك مثل الأجساد المريضة فإنها تحول أى طعام نأكله إلى عصارة سيئة حتى لو كان ذلك الطعام جيداً ، هكذا النفس المريضة فإنها تتأذى من أى شىء حتى لو كانت هذه الأشياء جيدة . أما الإنسان الذى له نفس صالحة جيدة فإنه يشبه ذلك الإنسان الذى له جسد صحيح حتى لو أنه أكل شيئاً ضاراً فإنه يتحول فيه إلى عصارة جيدة.. هكذا نحن أيضاً إذا كان تدبيرنا جيداً ، فإننا نستطيع أن نحصل على فائدة من كل شىء ، حتى لو كانت هذه الأشياء غير مفيدة .

مقاومة الأفكار والشهوات الشريرة :

٧٤ إذا رغبت أن تكون مقدساً فى إيمانك ، فيجب أن يكون لك العمل الهادىء فى مقاومة التحركات الشهوانية فى الأفكار والشعور . إختبر هذه الأفكار ، وأنا أثق أن الله سوف يمنحك سلاماً . وهكذا قدم صلواتك مع إختبار هذه الأفكار . وحاول أن تتقدم فى ذلك حتى تستطيع أن تحتمل ـ حين تتحرك فيك المتاعب الجسدية أو الروحية ـ بصبر وبدون حزن أو وجع .

٧٥ إعلم أنه إذا هاجمت الأفكار إنساناً وحاصرته وهو لم يقاومها ، فإنه يقوى هذه الأفكار ضد نفسه بأن يعطي هذه الأفكار القدرة أن تهاجمه وتغريه . ولكن إذا عرف الإنسان هذه الأفكار وبدأ فى مقاومتها ، وطرد هذه الأفكار ، وبدأ يمارس عكسها ، فإن الشهوة سوف تضعف ، ولن يكون لها القدرة أن تهاجمه وتحزنه . وأخيراً شيئاً فشيئاً فإنه يجاهد ويأخذ معونة من الله وسوف يهزم الشهوة نفسها .

٧٦ حين تهاجم النفس بالشهوات فإنه من النافع لها باستمرار أن نقرأ الكتاب المقدس ، وكذلك أقوال الآباء القديسين ، حتى نذكر النفس بدينونة الله الرهيبة ، ورحيل النفس من الجسد ، ولقاء النفس مع قوات الظلمة التى صنعت معها الخطية خلال الحياة القصيرة المفجعة .

سلسلة أقوال الآباء من الفيلوكاليا

١ ــ أقوال القديس مرقس الناسك .

٢ ــ أقوال القديس نيلوس السينائى .

٣ ــ أقوال القديس دوروثيؤس من غزة .

٤ ــ أقوال القديس أوغريس الراهب .

(تحت الطبع)

القديس دوروثيؤس من غزة .

الثمن ٥٠ قرش